التصوف الإسلامي مفهومه ونشأته وأهميته

الدكتور: مصطفى عبد القادر غنيمات
كلية الآداب جامعة الإسراء الأردن

الملخص:

يتمحور هذا البحث حول مفهوم التصوف وعوامل نشأته وعلاقته بالإيمان.

فلقد تعددت آراء الباحثين والصوفية حول اشتقاق لفظ «الصوفية» و «التصوف» من جهة كما تعددت وتباينت التعاريف المتعلقة بالتصوف من جهة ثانية. وسيطلعنا البحث على بعض هذه التعاريف على سبيل المثال لا الحصر.

و سيطلعنا البحث على نشأة التصوف وتطوره والعوامل التي أسهمت في ذلك.

إن التصوف نتاج إسلامي أولاً بدأ بالزهد كاتجاه سلوكي مضمونه التقشف والإعراض عن زخرف الحياة الدنيا وترجيح كفة الآخرة، لكن ذلك لا يعني التواكل بل الحث على العمل والأخذ بالأسباب إذ لا رهبانية في الإسلام.

ولقد شهد العالم الإسلامي نشأة مبكرة لعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله واللغة والنحو وعلم الكلام، حيث نشأت هذه العلوم خلال القرن الأول للهجرة، وتحددت موضوعاتها خلال القرن الثاني الهجري، ثم شهد العالم الإسلامي ظهور علم التصوف الذي أخذ موقعه إلى جانب العلوم الإسلامية الأخرى في إطار بنية فكرية إسلامية عامة.

ولما كانت تلك العلوم قد شقت طريقها إلى النشأة تحت تأثير العوامل الداخلية وأهمها القرآن والحديث، فإن تطور تلك العلوم ومنها علم التصوف يجب أن يبحث في هذا النطاق القرآني، حيث فيه نشأت، وفيه نضجت، وفيه تطورت وواجهت علوم الأمم تؤيدها أو تنكرها في ضوئه.

وما من شك في أن اتصال المسلمين بالثقافات والحضارات الأخرى من يونانية وفارسية، ودخول الناس أثناء الفتوحات الإسلامية في «دين الله أفواجاً» ومن ديانات مختلفة من جهة وما وقع في العالم الإسلامي من حوادث كان لها تأثيرها في جميع جوانب الحياة من جهة ثانية... كل ذلك قد أدى إلى دخول عناصر جديدة في التصوف الإسلامي، ومن ثم

اختلط بالفلسفة اليونانية التي دخلت أو أدخلت إلى المجتمع الإسلامي فظهر التصوف الفلسفي يحمل في طياته أفكاراً أبعد ما تكون عما قرره القرآن الكريم بآياته والنبي محمد صلى الله عليه وسلم بسلوكه وحديثه والصحابة رضوان الله عليهم بممارساتهم المختلفة، التعبدية منها والدنيوية. ومن هذه الأفكار الفناء في الذات الإلهية ووحدة الوجود وكثير من البدع والإنفعالات والممارسات السلوكية التي لا أساس لها في الكتاب والسنة.

وبعيداً عن هذه الأفكار الدخيلة فإن التصوف الإسلامي له تأثير وأهمية في إعداد وتكوين الشخصية المسلمة لأنه التطبيق العملي للإسلام، ومن ثم علينا أن نفرق بين التصوف الإسلامي والتصوف البدعي فلا نعمم ما يقوله غلاة الصوفية عن التصوف الإسلامي.

وفي هذا العصر الذي تتداعى فيه الأمم على الأمة الإسلامية كما تتداعى الأكلة على قصعتها، وتكال التهم للإسلام والمسلمين من طرف أعداء الإسلام، فإن المسلمين في حاجة ماسة إلى تربية إيمانية تغسل قلوبهم من حب أنفسهم

وحب الدنيا وزخرفها ومتاعها، وتأخذ بأيديهم إلى حب الله ورسوله، وتحررهم من العبودية للأهواء والأوهام، وتطهر عقولهم من الشرك، ومعاملاتهم من الغش، وعباداتهم من الرياء وأقوالهم من النفاق. إنهم بحاجة إلى تزكية نفوسهم... إلى التصوف الإسلامي في حقيقته المستند إلى الكتاب والسنة بعيداً عن الموروثات اليونانية والفارسية التي دخلت أو أدخلت إلى هذا التصوف فألحق به الأدعياء والعوام والخرافيون من البدع والأوهام حتى ظنه الكثيرون أنه عبارة عن طرق وحلقات وطبول وتمائم وأذكاراً مبتدعة وحرمان مما أحل الله لنا في هذه الحياة الدنيا، واستسلام للجبر والتواكل.

المقدمة

شهد المجتمع الإسلامي نشأة مبكرة لعلوم تمحورت حول القرآن والسنة، ومن هذه العلوم: علوم القرآن والحديث والفقه وأصول الفقه واللغة والنحو وعلم اللغة والنحو وعلم الكلام. وقد سميت بالعلوم النقلية.

وإلى جانب هذه العلوم ظهر علم التصوف الذي نشأ بدوره في أحضان الكتاب والسنة، واحتل هذا العلم موقعه في

تصنيف ابن خلدون للعلوم، حيث اعتبره من العلـوم الـشرعية الحادثة في الملة.

ولقد جاء هذا البحث يتناول التـصوف الإسـلامي مـن حيث مفهومه ونشأته وأهميته.

تعددت مواقف مؤرخي الفكر الإسـلامي ومـؤرخي التـصوف حول اشتقاق لفظ الصوفية والتصوف من جهة وحول تعريـف التصوف من جهة ثانيـة. وسـيطلعنا هـذا البحـث علـى بعـض الآراء المتعلقة باشتقاق اللفظ المشار إليـه، كمـا سـيطلعنا علـى نماذج لتعريـف التـصوف، علمـاً بأنـه مـن الـصعب أن نحظـى بتعريف واحد جامع مانع للتصوف.

أطلقت كلمة صوفي لأول مرة في القرن الثـاني الهجـري على أبي هاشم الزاهد البغدادي، وعلـى الكيميـائي جـابر بـن حيان. أما قبل هذا التاريخ فقد كان اللفظ المستخدم « زاهد « . الشيء الذي يعني أن التصوف نشأ عن الزهد.

وسيطلعنا البحث على العوامل التي أسـهمت في نـشوء الزهد والتصوف، وأهمها القرآن والحديث والثورة ضد علمـي الفقه والكلام.

لقد كانت هناك إرهاصات يمكن أن نعتبرها من الناحية التاريخية تمهيداً لنشوء التصوف الإسلامي. إنها ظاهرة الزهد التي بدأت بالظهور منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسل، لتكتمل معالمها في القرن الثاني الهجري.

الزهد اتجاه سلوكي يتضمن التقشف، وعدم التعلق بالدنيا، وغايته إتمام العبادات وكمالها طبقاً للتشريع الإلهي.

وما من شك في أن حركة الزهد قد عاصرت جميع الأديان منذ نشأتها سواء أكانت هذه الأديان سماوية أم وضعية، وشتان بين الزهد الإسلامي والزهد الذي صاحب الأديان الأخرى. فالزهد الإسلامي يرتبط بالعقيدة الإسلامية، ومتأثر بتعاليم الإسلام. فالتقشف والإعراض عن زينة الحياة الدنيا لا يعني من منظور إسلامي التواكل وترك العمل والإنقطاع النهائي عن العبادة، والإعراض عن الزواج، بل إنه عبادة وعمل وجهاد وتضحية في سبيل نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عن ثغور البلاد الإسلامية، فلا رهبانية في الإسلام.

وقد تظافرت جملة من العوامل انبثقت من البيئة التي انتشر فيها الإسلام، فأسهمت في نشوء الزهد ثم التصوف. بعض هذه العوامل يرجع إلى القرآن الكريم والأحاديث

الـشريفة وسـيرة الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم وأصـحابه، وبعضها الآخر يتعلق بالأحداث التي وقعت على مسرح الحيـاة السياسية، ومنها موقعـة صـفين، ومـشاكل التحكـيم، ثـم قتـل الحـسين وانقـسام المـسلمين إلى فـرق سياسـية لبـست ثـوب الإسلام، إضافة إلى الثورة ضد النفس وضد النظام القائم. كمـا أن علمـي الفقـه والكـلام كانـت معالجتهمـا للمـسائل الدينيـة معالجة ظاهرية لا تعمق فيها من الناحية الروحيـة، حيـث كـان الفقهـاء يتمـسكون بحرفيـة النـصوص الدينيـة، فلـم يتعرضـوا لأحكام القلوب. أما علماء الكلام فكان موقفهم يمتحور حـول الدفاع عن العقيدة باستخدام الحجج العقلية. مما دعـا نفـراً مـن أتقياء المسلمين إلى الإتجاه إلى الزهد، ومن ثم ظهور التصوف.

التصوف يهدف إلى تخلية القلب من الـصفات المذمومـة وتحليته بالصفات المحمودة والأخلاق الفاضلة. فالتصوف يهـتم بالجانب القلبي ويرسم الطريق العملـي الـذي يرفـع المـسلم إلى أعلى درجات الكمال الإيماني والخلقي. وعلى أثـر الفتوحـات الإسلامية والإتصال بالحضارات الأخرى دخلت إلى التـصوف عناصر جديدة تتعارض تماماً مع العقيدة الإسـلامية، ومـن ثـم

ومع القرن السادس الهجري ظهر التصوف الفلسفي الذي خضع في الكثير من مواقفه للتأثيرات الأجنبية.

وإذن كان التصوف ميداناً للأخلاق السامية ومناطاً لسماحة الإسلام إلى نهاية القرن الثالث الهجري.

اشتقاق لفظ « الصوفية « :

فلقد تعددت الآراء حول اشتقاق لفظ الصوفية. فهناك من قال أنه مشتق من الصُّوفة، وقيل من صوفة القفا للينها، فالصوفي هين لين. ورأي يقول بأن اللفظ مشتق من الصِّفة إذ جملته انصاف بالمحاسن وترك الأوصاف المذمومة. وهناك من يرى أنه مشتق من الصّفاء، ورأي آخر يقول أنه مشتق من الصُّفة.[1]

وقال بعضهم أن الكلمة مأخوذة من كلمة صوفيا وهي كلمة يونانية وتعني الحكمة. وقال آخرون أنها منسوبة إلى الصُّفّة وهي مكان في المسجد النبوي، وكان يقيم فيه طائفة من الصحابة الذين انقطعوا بقلوبهم وقوالبهم لعبادة الله، ومن ثم فهم المعنيون بقوله تعالى مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه..» [2] بينما يرى آخرون أن لفظ الصوفية نسبة إلى قبيلة كانت منقطعة لخدمة الكعبة واسمها الصوفة، وآخرون يرون أن هذه الكلمة مأخوذة من الصفاء والمصافاة.[3]

والراجح كما يقول الدكتور محمد عابد الجابري أن تسمية التصوف قد « جاء من لبس الصوف» [4] . وينقل الجابري عن ابن تيمية قوله : « لفظ الصوفية لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وربما اشتهر التكلم به بعد ذلك» . كما يستبعد الجابري أن تكون نسبة « صوفي « إلى أهل الصُّفة أو الصِّفة مرجحاً هذه النسبة إلى لبس الصوف. [5]

ويكاد يجمع مؤرخو التصوف على أن لفظ « التصوف «لم يكن شائعاً في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. ويبدو أن اللفظ « صوفي « عرف في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. وقيل أنه أطلق على جابر بن حيان الذي كان ينتحل مذهب الشيعة ويسكن الكوفة. كما سمي بهذا الاسم « صوفي « علي بن هاشم الكوفي. وقد اتفق صاحب كشف الظنون والقشيري على هذا الرأي.

أما ابـن تيميـة الفقيـة الحنبلـي فـيرى أن هـذا الإسـم « صوفي « قد ذاع واشتهر بعد القرون الثلاثة الأولى للـهجرة. ويـذكر ابن خلدون أن حاجة الخاصة للتميز عن العامة دفعـتهم إلى تكـوين طائفة خاصة بهم حوالي القرن الثاني الهجري بعد أن تفشى التبـذل بين الناس، فسمي هؤلاء الخاصة بالصوفية.

وإذن ظهرت كلمة « صوفية « في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة. ويحدد المستشرق ماسينيون ظهور هذه الكلمة حوالي سنة 199هـ وما بعد الموافق عام 814م. وتذكر بعض المراجع أن هذا اللفظ قد أطلق على نفر من الصوفية المسلمين الـذين كـانوا يؤلفون طائفة شبه شيعية أصلها من الكوفة. (6)

وهكذا نجد التباين في آراء الباحثين حول المعنى اللغوي لكل من الصوفية والتصوف، ومن ثـم لم يقتـصر هـذا الاخـتلاف بيـنهم حول المصدر الذي اشتق منه لفظ التصوف وإنما تعداه إلى التبـاين في الآراء أيـضاً حـول المعنـى الإصـطلاحي لـه، فتعـددت تعـاريف التصوف وتباينت.

نماذج لتعريف التصوف

ما من شك – وكما يؤكد على ذلـك الـدكتور محمـد عابـد الجابري – في أن من مشاكلنا الفكرية التي نعـاني منهـا نحـن العـرب

والمسلمون في هذا العصر تعدد المرجعيات في ثقافتنا المعاصرة. فهناك المرجعية التراثية العربية الإسلامية، والمرجعية العصرية الأوروبية الأصل والهوية، والمرجعية النهضوية وهي مزيج من المرجعيتين المذكورتين والتي أصبح يشكلها فكر عصر النهضة العربية الحديثة.[7]

فلقد كانت الثقافة العربية الإسلامية ولا تزال مسرحاً تلتقي فيه عدة موروثات ثقافية. فمنذ عصر التدوين الذي أعقب عصر الفتوحات الإسلامية مباشرة، برز الموروث الفارسي والموروث اليوناني والموروث الصوفي علاوة على الموروث العربي الخالص والموروث الإسلامي الخالص، كمكونات رئيسة وأساسية في الثقافة العربية الإسلامية. وبما أن كل واحد من هذه الموروثات كان امتداداً لثقافات مكتملة وراسخة، فقد كان لا بد أن يحمل معه بصورة أو بأخرى نظام القيم الخاص بالثقافة التي يمثلها. وكان من الطبيعي أن يحصل احتكاك وتداخل وتلاقح وصراع بين هذه النظم. ومن ثم فصراع القيم الذي يعود إلى تعدد الموروثات الثقافية على الساحة العربية قديماً وحديثاً كان له دوره وتأثيره في نسيج الحياة الاجتماعية فكثير من الصراعات التي عاشها ويعيشها المجتمع العربي كانت في جملتها عبارة عن أزمات في القيم. وقد تبقى أزمة القيم كامنة لمدة من الزمن، ثم « تنفجر بعد حين إما في شكل خروج عن النظام القائم، المادي أو الروحي أو هما معاً، وإما في شكل أزمة نفسية تضرب الكيان الفكري والروحي للشخص الواحد.

وقد تكفي الإشارة هنا إلى الأزمات الروحية والفكرية التي عانت منها شخصيات فكرية ذات وزن في تراثنا، أمثال المحاسبي وابن الهيثم وأبي الحسن الأشعري والغزالي» . [8]

يقول حجة الإسلام الإمام الغزالي بعد أن اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه، وذاق ثمراته : « الدخول مع الصوفية فرض عين، إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام» . (9)

وصحيح أن التصوف الإسلامي نتاج إسلامي أولاً إلا أن مؤثرات خارجية أسهمت في إدخال عناصر أو مفاهيم فيه من ثقافات وحضارات الشعوب في البلاد التي فتحها المسلمون.

وإذن فالتصوف حركة سايرت في نشأتها وتطورها نشأة التاريخ الإسلامي وتطوره في بيئاته المختلفة وشعوبه المتعددة وثقافاته المختلفة. وبناء على ذلك فإننا ونحن بصدد تعريف التصوف سوف لن نحظى بتعريف واحد جامع ومانع له.

فلقد أورد معروف الكرفي تعريفاً للتصوف يقول فيه إنه «الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق»[10] ويشير هذا التعريف إلى ضرورة التزام الزهد والتقشف والبعد عما في أيدي الناس.

ويقول بشر الحافي (ت 227هـ) « الصوفي من صفا قلبه لله « . ويشير إلى أنه جوهر التصوف هو الصفاء والتطهر للجسد والنفس وتخليها عن الشهوات والرغبات وكل ما يشغل عن الله. وفي هذا إشارة إلى فناء الصوفي عن صفاته المذمومة وبقائه بالصفات المحمودة. (11)

ويعرفه سهل بن عبد الله التستري (ت 283هـ) قائلا : «الصوفي من يرى دمه هدراً، وملكه مباحاً» . ويتضمن هذا التعريف سلوك الصوفي طريق الزهد والتقشف، فيسمو بنفسه عن أي اتصال دنيوي يبعده عن الله، فيرى أن كل ما يملك مباح للآخرين، فلا يشعر أنه يمتلك شيئاً، كما أنه لا يرد على ما يقع عليه من اعتداء بمثله لأنه حتى ولو أهدر دمه فإنه لا يريد أن يحمل في قلبه أي عاطفة غير حب الله. (11)

ويعرفه أبو سعيد الخراز (ت 268 هـ) قائلاً : « الصوفي من صفا قلبه فامتلأ قلبه نوراً «. ويعرفه سمنون المحب (ت 297 هـ) فيقول : « أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء» . إنه إيثار للآخرة على الدنيا، واستبعاد كل ما يجعل المتصوف متعلقاً بالدنيا من جاه وولد ومال وسلطان، فلا يجعل نفسه عبداً أو مملوكاً لأي شيء غير الله. (12)

ويعرف أبو الحسن النوري (ت 295 هـ) الصوفية قائلاً: « قوم صفت قلوبهم من الكدورات البشرية وآفات النفوس، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع الحق. فلما تركوا كل ما سوى الحق صاروا لا مالكين ولا مملوكين «. والتعريف يشير إلى أن الصوفي هو من نجح في تطهير نفسه من الآفات كالغرور والطمع في الدنيا والأنانية والأثرة وحب التملك والتعصب... الخ ، ومن ثم فالتعريف يشير إلى التمييز بين طائفتين من الصوفية: طائفة صفت قلوبهم من كدورات البشرية وهم الذين التزموا بالعبادات والفرائض . أما من تخلصوا من آفات الأجساد وتطهرت قلوبهم منها، كما تطهروا من آفات النفوس، فهؤلاء يكونون في درجة أعلى حيث أصبحوا في الصف الأول مع الحق. إنهم أهل المجاهدة الحقة، المطلعون على أسرار الملكوت، ولذاتهم في شرفات الملكوت الأعلى مع الحق.. فلما زكّوا أنفسهم أصبحوا لا مالكين ولا مملوكين. (13)

كما يعرفه أبو رويم البغدادي (ت303 هـ) بقوله : « التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد».

ويعرفه أبـو علـي الروذبـادي (في النـصف الأول مـن القرن الرابع الهجري) بقوله : « الصوفي من لبس الصوف علـى الصفا، وأطعم نفسه طعام الجفا، ونبذ الدنيا وراء القفا، وسلك سبيل المصطفى» . (14)

ويعرفه أبو سـعيد بـن أبـي الخـير (ت440 هــ) بقولـه: «التصوف هو أن تتخلى عن كل ما في دماغك، وتجود بكـل مـا في يدك، ولا تجزع لشيء أصابك» (15)

ويعـرف أبـو محمـد الجريـري (ت311هــ) التـصوف قـائلاً: « الدخول في كل خلق سـني والخـروج عـن كـل خلـق دنـي « . ومعناه أن التـصوف هـو الاتـصاف بأوصـاف الكمـال الـديني والخلقي، أي أن يصبح التصوف صفة ملازمة للـنفس لا مجـرد رسم أو صورة.

ويقترب من هذا المعنى تعريـف أبـي بكـر الكتـاني (ت 322هـ) حيث يقول: « التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء». (16)

ولما سئل الحسين بن منـصور الحـلاج (ت309هــ) عـن الصوفي. قال: « وحداني الذات، لا يقبله أحد، ولا يقبل أحـداً

«. أي هو الذي يحيا حياة المتوحد، لا يحبه الناس لأنهم ينكرون عليه أقواله وأفعاله، ولا يحب أحداً لأنه ينكر عليهم ما هم فيه. وقد كانت هذه حالة الحلاج نفسه، فقد رفضه معظم معاصريه- حتى من الصوفية- وكرهوا صحبته. (17)

ويعرف أبو بكر الشبلي (ت334هـ) الصوفي قائلاً :» لا يكون الصوفي صوفياً حتى يرى جميع الخلائق عيالاً عليه». وهذا لا يتم إلا في حال فناء الصوفي عن نفسه وبقائه بالله، وعندئذ يشعر بأنه منفذ للإرادة الإلهية. وهذه هي حال التي صاح فيها الحلاج بقوله : « أنا الحق».

ويقول أبو بكر الشبلي أيضاً: « الصوفي من لا يرى في الدارين مع الله غير الله» . وهذا تعبير آخر عن حالة الفناء أو وحدة الشهود.(18)

تلك نماذج لبعض تعريفات الصوفية والتصوف، ومن خلالها نلاحظ أنها تتضمن معاني مختلفة، فبعضها يشير إلى السمات الظاهرة للصوفي من حيث تقشفه وعزوفه عن مظاهر الدنيا وزخرفها، وبعضها الآخر يعكس معنى قرب الصوفي من الله، وفي بعضها إشارة إلى قطع العلائق مع الخلائق، ثم ربط

النفس بـالحق، ويلـي ذلـك الفنـاء عـن الـذات، ثـم المـشاهدة والكشف والرؤيا العيانية.

وإذن فقد كان مفهوم التصوف عند الزهاد هو الزهد في الدنيا وتحقيرها والإقبال التام على العبادة.

وخلال القرنين الثالث والرابع للهجرة « وضع الصوفية تعريفات دقيقة صريحة للتصوف عندما بدأوا يحولـون أنظـارهم إلى بواطنهم ويسجلون كل دقيقة من دقـائق حيـاتهم الروحيـة، وكل ما يخطر بقلوبهم مـن خـواطر، ومـا يحـسون مـن مواجـد وأذواق». (19) ومن ثم جاءت التعريفـات تتبـاين تبعـاً لتطـور التصوف وما دخل فيه من تيارات ثقافية مختلفة إسلامية أو غير إسلامية.

إن ظاهرة التصوف ونموهـا وتطورهـا إنمـا توجـد عنـد الأديان كلها. ومن ثم فإن الإسلام ليس بدعة بين الأديان في أن ينشأ لديه زهد.

فالزهد الإسلامي ظاهرة إسلامية بحتة برزت في المجتمـع الإسلامي جنباً إلى جنب مع ظواهر ثقافية أخرى، وذلـك منـذ

أن بدأ انتشار الإسلام. وقد أسهمت مجموعة من العوامل التي أدت إلى نشأة الزهد في الإسلام نشأة إسلامية خالصة، حيث انبعث هذا الزهد من صميم الحياة الروحية للمسلمين. (20)

عوامل نشوء الزهد والتصوف في الإسلام

فلقد بدأ التصوف بالزهد، وكانت حركة الزهد الإسلامي بمثابة إرهاصات لنشوء التصوف الإسلامي. فالزهد هو الناحية العملية من التصوف، وهو أسلوب من الحياة يحياه المؤمن، وموقف خاص من الدنيا وزخرفها وشهواتها ولذاتها، ومن النفس ومطامعها. فالزهد بهذا المعنى قد حث عليه الدين الإسلامي، وأخذ به النبي عليه السلام وكثير من الصحابة. (21)

وإذن يمكننا القول أن الإسلام ممثلاً بالقرآن والحديث هو العامل الأول بل والأهم في نشوء حركة الزهد بين المسلمين.

فالقرآن الكريم حث على الورع والتقوى وهجر الدنيا وزخرفها، وعظم من شأن الآخرة، ودعا إلى العبادة والتبتل، وقيام الليل والتهجد، وما إلى ذلك مما يدخل في صميم الزهد. يقول الله تعالى: « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً». (22)

ويقول تعالى : « إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً «. (23) أي أن العبادة ليلاً هي أثقل على المصلين من غيرها، ولكنها أثبت قولاً.

وقوله تعالى: « يا أيها المزمل، قم الليل إلا قليلاً، نصفه أو انقص منه قليلاً، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً».(24) والترتيل معناه تلاوة القرآن بتمعن وتدبر وتفكير، وهذا ضرب من ضروب العبادة. ويقول الله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد لهم مغفرة وأجراً عظيماً «. (25)

إن هذه الصفات التي جمعت في هذه الآية تتعاون في تكوين النفس المسلمة، فهي الإسلام والإيمان والقنوت، والصدق والصبر، والخشوع والتصدق، والصوم وحفظ الفروج، وذكر الله كثيراً. ولكل منها قيمته في بناء وتكوين الشخصية المسلمة. فالنص القرآني يتناول صفة المسلم والمسلمة ومقومات شخصيتهما. وتذكر المرأة في الآية بجانب الرجل مما يعكس اهتمام الإسلام في المرأة ورفع قيمتها، وترقية النظرة إليها في المجتمع، وإعطائها مكانها

إلى جانب الرجل فيما هما فيه سواء من العلاقة بالله، ومن تكاليف هذه العقيدة في التطهر والعبادة والسلوك القويم في الحياة. (26)

ويصور القرآن الجنة وما فيها من نعيم والنار وما فيها من صنوف العذاب، مما دفع كثيراً من المسلمين إلى التفاني في العبادة طلباً للنجاة، ولقد بلغ وصف القرآن للنار مبلغاً أثار الفزع والرعب في قلوب المؤمنين، فقضوا الليالي في التوبة والاستغفار والبكاء، مما كان له الأثر الكبير في دخول الزهاد الأوائل طريق الزهد وهجر الدنيا. يقول الله تعالى : « إن جهنم كانت مرصاداً، للطاغين مآبا، لابثين فيها أحقاباً، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً، إلا حميماً وغساقاً، جزاءً وفاقاً «. (27)

ويقول تعالى: « إنا أعتدنا للظالمين ناراً، أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً» . (28)

ويقول تعالى أيضا: « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم، ولا يحض على طعام المسكين». (29) إنها آيات الترهيب التي تصف حال أهل النار، وكيف يتلظون بنار السعير.. نار جهنم وبئس المصير. والنار في اشتعالها لا ترحم بل تزأر وتقول: « هل من

مزيد». ولقد تضمن القرآن آيات كثيرة تشير إلى القسوة والشدة في معاملة المنحرفين عن شرع الله تعالى. وهذه الآيات وما تضمنته من صنوف العذاب في الآخرة تدفع المؤمن إلى أن يتجه اتجاهاً تعبدياً في سلوكه الدنيوي أي إلى الزهد.

أما في ذم الدنيا والتقليل من شأنها في مقابل الآخرة، والحث على الزهد فيها، فقد وردت آيات كثيرة في ذلك.

يقول الله تعالى: « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب». (30)

وقوله تعالى: « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور». (31)

وقوله تعالى: « فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى». (32)

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تصف الجنة ونعيمها ولذاتها التي على رأسها لذة النظر إلى وجه الله الكريم مثل قوله تعالى: « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة». (33)

كما وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى المؤمنين الخاشعين العابدين، والركع السجود وغير ذلك من الصفات التي تشير إلى الزهد وتمام العبادة.

يقول الله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً.والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً».[34]

وإذا كان هذا الزهد قد « قام في أول مرة على عامل الرهبة والخوف من الوقوع فيما تزينه الشهوات... إلا أن هذا الزهد الأول تطور في مفهومه فيما بعد، ودخلت فيه معاني جديدة فانتقل مفهومه من الخوف إلى الحب... من الرهبة إلى الشوق... ومن الحذر إلى الرجاء... فبعد أن كان الزاهد يتجه إلى الله سبحانه وتعالى خوفاً أو رهبة من سعير ناره، نجده بعد ذلك يتجه إلى الله عز وجل حباً في ذاته لا حباً في جنته، وعشقاً لصفاته لا طمعاً في رحمته.. فأصبح الحب موجهاً لذات الله لأنه جل وعلا أهل لهذا الحب».[35]

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الزهد الإسلامي لا يمنع الزاهدين من الزواج، ولا يحض على الإنقطاع عن العمل

المشروع. فالصحابة وهم من خيرة الزهاد كانوا يعملون ويأخذون بالأسباب امتثالاً لأمره تعالى: « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون...». [36]

كما كان للأحاديث الشريفة تأثيرها إلى جانب القرآن الكريم في نشوء الزهد عند المسلمين سواء تعلق الأمر بالحث على العمل والأخذ بالأسباب ثم التوكل على الله أو الإكثار من الذكر والاستغفار والتوبة... إلخ.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً». [37]

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في فضل الذكر: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة». [38]

والسكينة هي الحالة التي يطمئن بها القلب فيسكن عن الميل إلى الشهوات. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». [39]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب». [40]

إن في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم « ذخـيرة كـبيرة ترسم صورة واضحة لحياة الزهد والنـسك والتعبـد الـتي كـان يحياهـا الرسول بحيث أننا نرى من خلالها ذلك المثل الأعلى في الحيـاة الدينيـة التي رمى إليها الدين وعبر عنه الرسول بقولـه « عرضـت علـي الـدنيا فأبيتها» . [41] فالرسول صلى الله عليه وسلم، القدوة الحسنة، قد عـزف عن الدنيا وزخرفها وفضل الآخرة.

وفي حديث آخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « اللـهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين». [42]

وما من شك في أن الإسلام لم يحرم التمتع بالحلال مـن أمـور الدنيا، ولكن الذي نهى عنه الإنغماس في الشهوات التي تشغل القلـب عن ذكر الله.

يقول الله تعالى : « قـل مـن حـرم زينـة الله الـتي أخـرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة». [43]

فالإسلام يدعو إلى مجاهدة النفس وكبح شهواتها ونزواتها، وهذا باب يؤدي إلى الزهد ومن ثم إلى التصوف. كما أن الإكثار من ذكر الله تعالى الذي أشارت إليه الآيات القرآنية السابقة والأحاديث الشريفة إنما هو باب معروف في التصوف وهو يشتمل على تكرار الأسماء الإلهية والأوراد الصوفية.

إن إيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد الإيمان وإما من فساد العقل، وما أكثر ما يكون منهما. ولهذا نبذها رسول الله صلى الله عليه وسلم وراء ظهره هو وأصحابه، وصرفوا عنها قلوبهم وهجروها ولم يميلوا إليها. وعدوها سجناً لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد. ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب. فقد عرضت على الرسول صلى الله عليه وسلم مفاتيح كنوزها فردها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم في الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مالي وللدنيا، إنما أنا كراكب في ظل شجرة ثم راح وتركها» .

وقال أيضاً : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما ترجع «. (44)

وقد اعتمد زهاد المسلمين الأوائل على ما ورد في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة من إشارات إلى الزهد، وموقف المسلم من الدنيا ومن النفس ومن الله والدار الآخرة، واستوحوا معاني الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة « في إقامة نظام للزهد له قواعد وأصول ورياضات، ثم جاء المتأخرون فخرجوا من الآيات القرآنية ما شاء لهم التخريج، وتوسعوا في معانيها توسعاً ارتفع بها إلى مستوى البحوث النظرية، وذلك في ظل تجاربهم الروحية من جهة، وظل الثقافات والفلسفات الأجنبية غير الإسلامية من جهة أخرى». (45)

أما العامل الثاني في نشأة الزهد والتصوف في المجتمع الإسلامي فهو ثورة المسلمين الروحية ضد النفس وضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم. فالثورة ضد النفس وردعها وكبح شهواتها قد وجدت بذورها الأولى في القرآن الكريم الذي يمجد النفس اللوامة. يقول الله تعالى: « ولا أقسم بالنفس

اللوامة». [46] إنها النفس التي تلوم صاحبها، وتجعله يجاهد شهواته ويتجه إلى مرضاة الله تعالى.

ومع اتساع الفتوحات الإسلامية، وامتداد رقعة العالم الإسلامي، وكثرة ما غنمه المسلمون، وما جلب إلى بلادهم من ألوان الترف والنعيم، فقد أقبل كثيرون منهم على الدنيا وانغمسوا في الملذات وصنوف المتعة، مما أثار في نفوس أتقيائهم ثورة روحية جامحة، فقاموا يحرضون المسلمين ويدعونهم إلى العودة إلى حال التقوى والصلاح، وترسم سيرة رجال الصدر الأول. ثم اضطروا إلى الانزواء والعكوف على أنفسهم، وسلوك طريق الزهد.

وخلال المائة الأولى من عهد الإسلام حدثت « حوادث سياسية خطيرة مثل الحروب الأهلية الدامية الطويلة التي وقعت بين علي ومعاوية، والفتن والقلاقل في عهد عثمان من قبل، والاضطرابات بين بني أمية والبيت العلوي بعد ذلك. ويتبع كل هذا اضطهاد لآل البيت، وتشريد وتقتيل، وكبت للحرية الشخصية لم يسبق له مثيل». [47]

وظهـرت الخلافـات الـسياسية المتعقلـة بمـن هـو أحـق بالخلافة، علي أو معاوية. فظهرت فرقة الشيعة المتمسكة بأحقية علي بالخلافة. ورأت طائفة أخرى أن معاوية هـو الأحـق بهـا. وفريق ثالث رفع شـعار « لا حكـم إلا لله» فـلا هـذا ولا ذاك، وهم الخوارج. ثم ظهرت حركة الإعتزال ومسألة خلق القرآن. وثارت الفتن بين مختلف الفرق التي كانت خلافاتها سياسية ثـم لبست ثوباً دينياً. وكل ذلك أدخـل الرعـب والقلـق في قلـوب المسلمين مما دفع الكثيرين مـنهم إلى العزلـة والزهـد وخلـوات العابدين. (48)

وإذا كان البحث قد أطلعنا علـى عـاملين مـن العوامـل الداخلية التي أسـهمت في نـشوء الزهـد والتـصوف الإسـلامي وهما : العامل الديني والثـورة ضـد الـنفس والنظـام الـسياسي والاجتماعي القائم، فإن هنـاك عـاملاً آخـر يـضاف إلى هـذين العاملين وهو الثورة ضد الفقه والكلام.

فلقد نـشأ هـذان العلمـان مبكـراً وقبـل نـشأة الفلـسفة الإسلامية. وكان هذان العلمـان يتنـاولان المـسألة الدينيـة دون تعمـق فيهـا مـن الناحيـة الروحيـة، أي دون التعـرض لحقيقـة

المشاعر الدينية العميقة وحرارة الإيمان الملتهبة التي تكمن وراء العبادات الظاهرة. وكان علماء الفقه يحملون لواء التعصب للنص، أي يتمسكون بحرفية النصوص الدينية. أما علماء الكلام فقد أثاروا العديد من الإشكالات حول العقائد ولجئوا إلى الدفاع عن العقيدة الإسلامية بأدلة عقلية.

وإذن لم يكن في طبيعة هذين العلمين ما يسمح بإحراز أي تقدم مثمر في ميدان العبادة الروحية الحقة.[49] ومن ثم لم يجد أتقياء المسلمين في فهم الفقهاء والمتكلمين للإسلام ما يشبع عاطفتهم الدينية فلجئوا إلى الزهد والتصوف لإشباع هذه العاطفة. فالمتكلمون اعتقدوا قواعد الإيمان وأقروا بصحتها ثم اتخذوا أدلتهم العقلية للبرهنة عليها. فموقف المتكلم موقف محامٍ مخلص اعتقد صحة قضية وتولى الدفاع عنها بالأدلة والحجج العقلية لإثبات صحتها.[50]

ونشير هنا إلى أن بعض المستشرقين يزعمون أن نظام الزهد الإسلامي مأخوذ من الرهبنة المسيحية، وهذا مغاير للحقيقة، إذ أن نشأة الزهد الإسلامي كانت نشأة تدريجية طبيعية، حيث كانت هناك

إرهاصات أولية تتفق مع تعاليم الإسلام، وأخذت في النضوج لتصبح نسقاً من أنساق العبادات الإسلامية الحقة. [51]

نشأة التصوف الإسلامي وتطوره

يقول الدكتور محمد إقبال في كتابه « تطور الفلسفة الميتافيزيقية في فارس «ص196: « ليس من الصواب أن نرجع كل ظاهرة في بيئة ما إلى عوامل خارجة عنها فنهمل بذلك العوامل الداخلية. فإنه لا فكرة من الأفكار ذات قيمة يكون لها سلطان على نفوس إلا إذا كانت تمت إليهم بصلة. فإذا جاء عامل خارجي أيقظها، ولكنه لا يخلقها خلقاً. وعندما بحث المستشرقون في أصل التصوف ذهبوا إلى أن مرده إلى هذا العامل الخارجي أو ذلك، ونسوا أن أية ظاهرة عقلية أو تطور عقلي في أمة لا يكون لهما معنى، ولا يفهمان إلا في ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينية والإجتماعية التي عاشت فيها هذه الأمة قبل ظهور تلك الظاهرة». [52]

يشير هذا النص إلى ضرورة النظر أولاً إلى البيئة العقلية والدينية والسياسية والإجتاعية التي نشأ فيها التصوف. فالتصوف سواء أكان إسلامياً أم غير إسلامي هو استبطان منظم للتجربة

الدينية ونتائجها في نفس الشخص الذي يمارسها. إنها ظاهرة إنسانية ذات طابع روحي وليس وقفاً على أمة بعينها.

يقول د.محمد إقبال: « المعرفة الصوفية معرفة مباشرة لا يمن أن يُطلع عليها، لأن الحالات الصوفية أشبه بالشعور منها بالعقل. ومحتويات الشعور الديني نفسها لا يمكن الإطلاع عليها أي نقلها للآخرين »[53].

وما من شك في أن التصوف الإسلامي في مسيرته التطورية قد تأثر بعوامل خارجية وتيارات فكرية دخلت أو أُدخلت إلى المجتمع الإسلامي على أثر الاتصال بالثقافات والحضارات الأخرى.

إن تاريخ التصوف الإسلامي جزء لا يتجزأ من تاريخ الإسلام نفسه، ومظهر من مظاهر هذا الدين، وما أحاط به من ظروف، وما دخل فيه من شعوب، ومن ثم فهو لم يجتلب من الخارج دون أن تكون له صلة بالدين الإسلامي وروحه وتعاليمه.

وإذن فلقد نشأ التصوف الإسلامي أول الأمر في أحضان الكتاب والسنة في صورة الزهد، واسترعى أنظار بعض الخاصة من المسلمين المعاني الرقيقة في القرآن الكريم ذات الطابع الخلقي العميق، ورأوا فيها حقائق خفية أعمق مما يرى الناس. وساد القلق

في صدور الخلص من هؤلاء الناس حين اندفع المسلمون وتزاحموا في غمار الحياة، فلجأوا إلى هذه المعاني يتعمقون فيها، ويجدون فيها الملجأ.[54]

بدأ هذا التصوف من القرآن والسنة، وكان ثورة اجتماعية على الترف العقلي الذي كان يمثله من وجهة نظر الصوفية الفلاسفة وعلماء الكلام، وثورة على الترف الإجتماعي والإقتصادي متمثلاً في الطبقة العليا من أغنياء الدولة وكبار التجار. كما أن التصوف السني كان ثورة الضعفاء والفقراء على مجتمع ساده التحلل الإجتماعي والإقتصادي. وانتقل إلينا تراث خالد يحوي مذاهب متناسقة كاملة التناسق، ويحدثنا عن أدق الحركات القلبية، ويضع المذهب النقي في الإسلام ويكتشف فكرة الضمير، وهي فكرة لم تصل إليها أوروبا إلا حديثاً على يد بتلر الأخلاقي الإنجليزي. [55]

والدين الإسلامي الذي يستند إلى عقيدة التوحيد، ما كان ليظهر عنه التصوف وما فيه من نظريات لو لم يخرج من حدود البيئة الصحروايةالتي نشأ فيها، ولو لم يتصل بالديانات القديمة الغنية بتقاليدها وطقوسها وأساليب عبادتها ومناهج رياضتها النفسية.

لقد ترتب على احتكاك المسلمين بثقافات وحضارات الأمم الأخرى دخول عناصر جديدة انصهرت في بوتقة الإسلام، ومن ثم شهد العالم الإسلامي آنذاك حضارة إسلامية مزدهرة امتدت من المحيط الأطلسي غرباً إلى مشارف الصين شرقاً، وكانت اللغة العربية لغة العلم آنذاك.

يقول بريفولت في كتابه « بناء الإنسانية Making of» «Humanity أما ما ندعوه العلم فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الإستقصاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان. وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي «. ويضيف بريفولت قائلاً: « إنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الإزدهار الأوروبي إلا ويمكن إرجاعها إلى أصلها، مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة». (56)

و مع ذلك ظهر بعض دعاة العنصرية في أوروبا يزعمون بأن العلوم والفنون والفلسفة والتصوف مرتبطة بالجنس الآري في نشأتها وتطورها. ومن ثم ذهب بعضهم إلى

تفسير نشوء التصوف الإسلامي بمؤثرات خارجية يونانية أو فارسية أو هندية.

وإذا كان المجتمع الإسلامي قد شهد ظهور علوم إسلامية مبكرة وهي العلوم النقلية، كعلوم القرآن والحديث والفقه وأصول الفقه وعلوم اللغة وعلم الكلام.. وأن هذه العلوم قد نشأت في القرن الأول للهجرة، وتحددت موضوعاتها خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري [57] ، فإن التصوف قد ظهر خلال هذه الفترة الزمنية وتحدد موضوعه كعلم احتل موقعه إلى جانب العلوم النقلية وبذلك استحق هذا العلم أن يضعه ابن خلدون ضمن تصنيفه للعلوم، وأنه « من العلوم الشرعية الحادثة في الملة « مقرراً أن ظهوره كان نتيجة جنوح الناس إلى مخالطة الدنيا وأهلها في القرن الثاني الهجري، مما جعل المقبلين على العبادة يتخذون إسماً يميزهم عن عامة الناس الذين شغلتهم الحياة الدنيا «.

يقول ابن خلدون في مقدمته: « هذا العلم – علم التصوف – من العلوم الشرعية الحادثة في الملة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من

الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذةٍ ومالٍ وجاهٍ، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختُصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة «. (58)

ونشير هنا إلى وجهة نظر ابن خلدون المتعلقة باشتقاق لفظ الصوفية والتصوف، حيث يقول في مقدمته: « والأظهر إن قيل بالإشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف. فملا اختُصَّ هؤلاء بمذهب الزهد والإنفراد عن الخلق والإقبال على العبادة، اختُصُّوا بمآخذ مدركة لهم «. (59)

وأورد صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم التصوف كلاماً للإمام القشيري قال فيه: « اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لا أفضلية فوقها،

فقيل لهم الصحابة، ثم اختلف الناس، وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس – من لهم شدة عناية بأمر الدين – الزُّهاد والعُبّاد، ثم ظهرت البدعة وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الإسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة «. [60]

وذكر في كشف الظنون أن أول من سمي بالصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة **150**هـ. [61]

وإذن فالتصوف مأخوذ من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه الكرام وليس مستقى من أصول لا تمت إلى الإسلام بصلة كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعوا أسماء مبتكرة فأطلقوا لفظ التصوف على الرهبنة البوذية، والكهانة النصرانية، والشعوذة الهندية. والحقيقة أن التصوف إن هو إلا التطبيق العملي للإسلام. [62]

وإذن فالتصوف نشأ مع الإسلام وولد معه، لأنه جزء منه، وهو التطبيق العملي والجانب الروحي منه، ولا يمت بصلة إلى ما يزعمه أعداء الإسلام عنه أنه مأخوذ من الأمم الأخرى،

«بل ما هو في واقع الأمر إلا حال النبي صلى الله عليه وسلم وآله والقرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخيرية، وما الصوفي إلا المسلم الذي يكون في حاله مع الله، ومع الناس، أقرب شيء إلى ما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام وصفوة أصحابه «.[63]

فلقد ظهرت بذور التصوف في سماء الفكر الإسلامي في بداية القرن الثاني الهجري على هيئة نزعات شديدة من الزهد في متاع وزخرف الحياة الدنيا نتيجة ما وقع في العالم الإسلامي آنذاك من حوادث شديدة أثرت تأثيراً كبيراً في جميع جوانب الحياة. كما أن بعض الباحثين يرجعون ظهور التصوف إلى عاملين أحدهما الذنوب التي يقترفها العاصي ومحاولته محوها بطلب المغفرة من الله. أما العامل الثاني فيتمثل في الرعب الشديد الذي ينتاب العصاة من اليوم الآخر، وما أعد فيه من عذاب شديد لهم مما يجعلهم يطلبون التوبة من الله والزهد في الحياة. [64]

من التصوف السني إلى التصوف الفلسفي

وابتداء من القرن السادس الهجري دخل التصوف في دور فلسفي، ووصل ذروته في تصوف أصحاب وحدة الوجود والفناء والحلول وشطحات الصوفية.

يقـول أبـو الأعلـى المـودودي : لمـا أصـيبت العلـوم والأخلاق بـالزوال والإنحطـاط في الأزمـان الأخـيرة، وحـدث بزوالها ما حدث من المفاسد والسيئات، قـذرت عـين التـصوف الـصافية أيـضاً، وتعلـم المـسلمون كـثيراً مـن الفلـسفات غـير الإسـلامية مـن الأمـم الـضالة، وأدخلوهـا في الإسـلام باسـم التصوف. وأطلقوا اسم التصوف على كثير من العقائد والطرق الأجنبية التي لا أصل لها في الكتاب والسنة. ثـم تـدرج هـؤلاء الناس في تحرير أنفسهم عن قيود الإسلام وقالوا: أنـه لا علاقـة للتصوف بالشريعة. فليس التصوف الإسلامي الخـالص بـشيء مـستقل عـن الـشريعة إنمـا هـو القيـام بأحكامهـا بغايـة مـن الإخلاص، وصفاء النية وطهارة القلب».[65]

ولقد تأثر التصوف الفلسفي بالغنوص، وسقط عدد من مفكري الإسلام ضحية له، ومنهم الحلاج والسهروردي المقتول ومحي الـدين بـن عربـي وغيرهـم. « ولكـن هـؤلاء لا يمثلـون الإسلام في شـيء, إنهـم فلاسـفة صـوفيون، آمنـوا بـالغنوص كفكرة، وصبغوا مذاهبهم بصبغة خارجية غير إسلامية. فمـنهم من اتخذ علياً وأولاده مُثُلا عليا للحياة الإنـسانية الـسامية الـتي تستند إلى التأمل الباطني الذاتي، ومـنهم مـن حـاول أن يغلـف

مذهبه بآيات قرآنية، حفاظاً على حياته إذا أعلن مذهبه، ومنهم من حاول أن يجد في الخالق صورة المخلوق، أو أن يلغي ما بين الطبيعة الإلهية والطبيعة الإنسانية من تمايز، أو أن يجد في أصل الوجود عنصرين مختلفين للخير والشر، وكيف يتخلص الإنسان من عنصر الشر »[66]

ويذكر لنا الدكتور علي النشار نماذج من الصوفية الغنوصين ومنهم أبو حلمان الدمشقي، وكان فارسي الأصل «ولكنه نشأ في حلب ثم أظهر دعوته في دمشق، وهي حلول الإله في الأشخاص الحسنة، فإذا رأى هو وأصحابه صورة حسنة سجدوا لها معلنين أن الله حل فيها» . أما النموذج الثاني فهو الحلاج، وكان غنوصياً عنيفاً، ويضعه البيروني في زمرة المتنبئين الغنوصيين، وأنه ادعى أنه المهدي، ثم «أعلن حلول روح القدس فيه... وحين كان الحلاج يبعث إلى أصحابه يذكر أنه الأزلي الأول، ورب الأرباب، ومنشئ السحاب، ومشكاة النور ... وكان أتباعه يدعونه بالباري القديم المتصور كل زمان وأوان». [67]

والنموذج الثالث للغنوص الفارسي، هو ابن أبي العذافر محمد بن علي الشلمغاني الصوفي الشيعي الذي ادعى

حلول روح الله فيه، ورفع التكاليف عن أتباعه. ولكن الخليفة الراضي قتله. ولقد قامت الفرق الغنوصية بوضع كثير من الأحاديث، إلا أن علماء الحديث قاموا الغنوصيات، افلوطينيات محدثة كانت أم ثنوية. (68)

إن الأفكار المتعلقة بالحلول والإتحاد أو وحدة الوجود والفناء في الذات الإلهية... عناصر دخيلة على الفكر الإسلامي، ولا تمت بصلة للعقيدة الإسلامية والسنة النبوية، كما تتعارض مع ما يقرره القرآن الكريم.

يرى الدكتور محمد عابد الجابري أن فكرة الفناء هي أبعد ما تكون عما قرره القرآن الكريم بآياته، والنبي بسلوكه وحديثه ، والصحابة بممارساتهم المختلفة، التعبدية منها والدنيوية، كما أن فكرة الفناء لا تستقيم مع عقيدة التوحيد كما قررها القرآن الكريم والتي تعني نقيض الشرك. «فالتوحيد الإسلامي معناه: وحدانية الله وتنزهه من آية مماثلة أو مشابهة مع أي شيء آخر. فهناك مسافة لا نهائية، لا يمكن قطعها بأية طريقة، ولا بأي شكل، بين الله ومخلوقاته بما فيهم الملائكة الذين هم من طبيعة نورانية، لا ينقطعون لحظة عن عبادته».

ويضيف الجابري قائلاً: « وإذن فالمعنى الذي يريد المتصوفة إعطاءه ل« التوحيد » أو «الاتحاد» أو «الوحدة» – وتتضمن جميعاً معنى «الفناء» – لا أصل له في الإسلام وبالأحرى لا أصل له عند العرب ما قبل الإسلام الذين جعلوا المسافة بينهم وبين الله غير قابلة لأي اتصال معه، حتى على مستوى الدعاء والعبادة، إلا بتوسط الأصنام. إنه الشرك نقيض التوحيد». (69)

ويفرق ابن تيمة بين التصوف السني والتصوف البدعي، فيحترم رواء الزهد الأوائل الذين استقاموا على المنهج القرآني والسنة النبوية أمثال الفضيل وإبراهيم بن أدهم والجنيد البغدادي وعبد القادر الكيلاني، لأن غاية التصوف عندهم تطهير النفس وخلوص النية لله تعالى. ولكنه لا يتسامح مع متأخري الصوفية الذين بدلوا منهج الأوائل، وانسحبوا من مواجهة الأخطار إلى التجمع في زوايا خاصة يأكلون ويرقصون ويغنون ويشطحون تحت زعم الكرامات. ولهذا وجه اهتمامه إلى تنقية الإسلام مما ألحق به الأدعياء والعوام والخرافيون من البدع والأوهام والضلالات حتى ظنه الكثيرون أنه عبارة عن طرق وحلقات وطبول وتمائم، وأذكار وأورادٍ مبتدعة، وحرمانٍ من طيبات الحياة الدنيا، واستسلامٍ للجبر والتواكل. (70)

ويذكر ابن تميمة في المجلد الحادي عشر من (الفتاوى الكبرى) أن من المنتسبين إلى الصوفية من هو ظالم لنفسه وعاصٍ لربه وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم» [71].

ومن خلال حديث د. الجابري عن الحارث بن أسد المحاسبي (ت243هـ) يذكر أنه وقف « بشدة ضد شطحات المتصوفة، وتبرأ من الذين تنسب إليهم. وشدد على ضرورة التقيد بنص القرآن في مسائل العقيدة» [72]

ويذكر مؤرخو التصوف رد فعل المحاسبي على سلوك صدر من أحد أصحابه ينبئ عن اعتقاد في الحلول، فنهض إليه المحاسبي وهم بذبحه إذا لم يتب. [73]

يقول الغزالي أن طريق الصوفية « يقوم على تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال بكل الهمة على الله تعالى» [74]

أهمية التصوف

إن التصوف في صورته السنية إسلامي بحت. وهو أروع صفحة تتجلى فيها روحانية الإسلام، وفيه إشباع للعاطفة

وتغذية للقلب. والقرنان الثالث والرابع الهجريين يمثلان التصوف الإسلامي في أرقى مظاهره وأصفاها.

فإذا نظرنا إلى التكاليف أو الأحكام الشرعية التي قررها القرآن الكريم، وجدنا بعضها يتعلق بالأعمال الجسمية الظاهرة من صلاة وصيام وزكاة وحج، وهذه تدخل في إطار الأوامر الربانية، ثم النواهي المتعلقة بالسرقة والزنا والخمر.

وهناك تكاليف شرعية تتعلق بالقلب، وهذه أيضاً أوامر ونواهي. فمن الأوامر أركان الإيمان، والصدق والخشوع والتوكل والإخلاص... ومن النواهي الكفر والشرك والنفاق والكبر والرياء والحسد والحقد.

ونظراً لأهمية الأعمال القلبية فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعمل على تعميق الجانب الروحي في حياة المسلمين وكان يوجه أصحابه إلى إصلاح قلوبهم مبيناً لهم أن صلاح الإنسان يتوقف على صلاح قلبه وشفائه من الأمراض الخفية.

فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» [75]

ولأن صلاح الإنسان مرتبط بصلاح قلبه الذي هو مصدر أعماله الظاهرة لذا يجب عليه إصلاح قلبه بتحليته بالصفات الحسنة التي أمر الشرع بها وتخليته من الصفات المذمومة التي نهى الشرع عنها.

يقول ابن عمر: « لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر» [76] وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلي الله عليه وسلم قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه. [77]

يقول الإمام جلال الدين السويطي: « وأما علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد والعجب والرياء ونحوها، فقال الغزالي: إنها فرض عين» [78]

والتصوف هو الذي يختص بمعالجة الأمراض القلبية.

يقول ابن زكوان في فائدة التصوف وأهميته:

علم به تصفية البواطن من كدرات النفس في المواطن وفي شرح هذا البيت يقول العلامة المنجوري: التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس، أي عيوبها

وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء، لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته، فبعلم التصوف يُتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله سبحانه وتعالى. (79)

وإذن فالتصوف هو الذي يهتم بالجانب القلبي إضافة إلى العبادات البدنية ويرسم الطريق العملي الذي يرتقي بالمسلم إلى أعلى درجات الكمال الإيماني والخلقي، إنه المنهج العملي الذي يحقق انقلاب الإنسان من شخصية منحرفة إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة، وذلك من الناحية الإيمانية السليمة والعبادة الخالصة لوجه الله تعالى والأخلاق الفاضلة. (80)

ويحدثنا الدكتور يوسف القرضاوي عن أهمية التصوف مبيناً حاجة المسلمين الماسة إلى تربية إيمانية ترفعهم من حب الدنيا وحب أنفسهم إلى حب الله ورسوله، وإلى تقوى الله

وتزكية النفوس وتطهيرها، وتخلية القلوب من الرذائل وتحليته بالإيمان والأخلاق الفاضلة.

يقول د. القرضاوي: «لقد تبين من خلال التجربة العملية والممارسة الميدانية مع عوام المسلمين، ومع مثقفيهم، مع الغافلين منهم، ومع العاملين في الجماعات الإسلامية المختلفة، أن الجميع أفقر ما يكونون إلى تربية إيمانية صادقة، تغسل قلوبهم من حب الدنيا، ومن حب أنفسهم، وتأخذ بأيديهم إلى الله تبارك وتعالى، وتحررهم من العبودية للأشياء وللأهواء والأوهام، ليعتصموا بالعبودية لله وحده، وبذلك يطهرون عقولهم من الشرك، وقلوبهم من النفاق، وألسنتهم من الكذب، وأعينهم من الخيانة، وأقوالهم من اللغو، وعباداتهم من الرياء، ومعاملاتهم من الغش، وحياتهم من التناقض».

ويضيف القرضاوي مؤكداً على الحاجة إلى «التزكية للنفوس التي لا فلاح بغيرها.. والتزكية من الزكاة ومعناها الطهارة والنماء. والطهارة تعني التخلي عن النفاق والرذائل، والنماء يعني التحلي بالإيمان والفضائل، فهي كما يقول أهل السلوك تخلية وتحلية... ولا سبيل أمام البشرية عامة، والمسلمين خاصة، إلا بالحياة الربانية. إنهم في حاجة إلى ربانية نقية ترفعهم من حضيض عباد الشيطان، إلا ذرا

عباد الرحمن، وتنقلهم من تعاسة عبودية الدينار والـدرهم، وعبوديـة الدنيا إلى سعادة التحرر منها، إنهم في حاجـة إلى الـصدق مـع الحـق والخُلق مع الخَلق. وهذا ملخص التصوف» [81]

ولقد كان للتصوف أثره في الحياة الإسـلامية، «فكـم أسـلم على أيديهم من كافر، وكم تاب على أيديهم من عاصٍ، وكم رققوا من القلوب، وزكّوا من النفوس، وهذبوا من الأخلاق، فلنذكر هـذا لهم، بجوار ما نذكر مـن سـقطات وشـطحات والمتقـدمون فـيهم – بصفة عادية – أفضل من المتأخرين». [82]

ويؤكد الأمير شكيب أرسلان على أهميـة التـصوف قـائلاً: «إن أسـباب هـذه النهـضة الأخـيرة – في إفريقيـا – راجعـة إلى التصوف». [83]

وفي نفس الإطار نضع قول رشيد صفا في مجلة المنار – السنة الأولى ص (726) إذ يقول: «لقد انفـرد الـصوفية بـركن عظـيم مـن أركان الدين لا يطاولهم فيهم مطاول، وهو التهـذيب علمـاً وخلقـاً وتحقيقاً». [84]

ويقول ابن الحسن الشاذلي مؤكداً على أهمية التصوف: «من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر». [85]

وصحيح أنه في عصور لاحقة على بدء نشأة التصوف قد طرأت عليه عوامل ومؤثرات سلبية من فلسفات وعقائد دخيلة، وتناقض مع الإسلام في كثير من الوجوه، إلا أن لكثير من الطرق والزوايا وأتباعها دوراً بارزاً في نشر الإسلام والدفاع عن ثغوره وديارة». [86]

وقد سميت هذه الزوايا في البدء – خاصة في المغرب العربي وبعض البلاد الإفريقية الشمالية والوسطى – رباطات. واشتهرت الرباطات في المغرب العربي على السواحل خاصة، ومنها قصر هرقلة وقصر سوسة وغيرهما. وكان يسمى الرباط بالقصر. وقد ساهم في تأسيسها بعض أغنياء المسلمين، إضافة إلى التخطيط لها من جانب الدولة من حيث تحديد مواقعها وصفاتها لتحقيق الدفاع عن ثغور البلاد الإسلامية من جهة ونشر الإسلام من جهة ثانية، حيث كانت هذه الرباطات عامرة بالمرابطين والعلماء والصوفية. ويؤكد الدكتور عبد الرحمن

بـدوي علـى أن انتـشار الإسـلام في الـسنغال ومـالي والنيجـر وغينيا وغانا ونيجيريا والتشاد، إنمـا يرجـع الـشطر الأكـبر مـن الفضل فيه إلى الطرق الصوفية» فكانت الزوايا والرباطات الـتي أسـسها شـيوخ هـذه الطـرق الـصوفية بـؤرات لنـشر الـدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية في غربي القارة الإفريقية وقلبها. ومرد هذا خصوصاً إلى اختلاط الصوفية بالطبقـات الـشعبية في هذه البلاد، وعيشهم بين العامة والفقراء، مما أبدى لهؤلاء نماذج حية تتصف بالتقوى». (87)

وإذا أضـيف إلى ذلـك نـشاط بعـض الـصوفية في نـشر الإسلام في بلدان الهنـد والـصين وماليزيـا واندونيـسيا وغيرهـا والـتي يتواجـد فيهـا مئـات الملايـين مـن المـسلمين أدركنـا مـا للتصوف من أهمية في نشر الإسلام في مختلف بلدان العالم.

يؤكـد الـدكتور تركـي رابـح علـى الـدور الهـام الـذي اضطلعت به الطـرق الـصوفية والزوايـا في الجزائـر في مقاومـة الاحتلال الفرنسي فيقول: « إن لبعض الصوفية في الجزائر دوراً لا يمكن إنكاره في المحافظة على الثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية... ولا يزال البعض من هـذه الزوايـا – زاويـة الهامـل، وزاوية ابن أبي داوود وزاوية الـشلاطة – يـؤدي دوره في نـشر

هذه الثقافة حتى اليوم. كما أن بعض الطرق الصوفية كان لها دور كبير في الجهاد ضد الاستعمار، مثل الطريقة الرحمانية التي شارك قادتها في ثورة (1870–1871) والطريقة القادرية التابعة لأسرة الأمير عبد القادر بطل الكفاح الجزائري. (88)

ولقد ساهمت مدارس التصوف الإسلامي في المغرب بنصيب بالغ الأهمية في نشر الإسلام داخل القارة الإفريقية كلها، ولم يقتصر دور هذه المدارس على الدعوة الإسلامية، بل أسهمت في تجهيز الجيوش الإسلامية وقتال الأعداء حيث ضحى كثير من الصوفية بأنفسهم وسقطوا شهداء في ساحات المعارك. (89)

يري د.محمد طنطاوي – مفتي جمهورية مصر العربية – أن التصوف الحقيقي معناه: الحرص التام على الإكثار من ذكر الله وأداء التكاليف الشرعية، وتصفية القلب والروح من كل ما يتنافى مع آداب الإسلام وعقيدته، وتطهير النفس وتزكيتها. وإذا وجد أناس ينسبون أنفسهم إلى الصوفية ولكن أقوالهم وأفعالهم تتعارض مع عقيدة الإسلام وآدابه فإن الصوفية الحقيقية بريئة منهم. (90)

ويرى مفتي الجمهورية العربية السورية الشيخ أحمد كفتارو أن التصوف منهج يستهدف التمسك بالقرآن والسنة النبوية قولاً وعملاً وخلقاً وسلوكاً، وقد نشر الإسلام على أيدي الصوفية وأتباعهم في مشارق الأرض ومغاربها، ولا يحاربهم إلا دعاة التبشير وعملاء الاستعمار. ثم يستشهد بوجه نظر الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه «رجال الفكر والدعوة إلى الإسلام» القائل: «كان لهؤلاء – أي الصوفية – فضل كبير لنشر الإسلام في الأمصار البعيدة التي لم تغزها جيوش المسلمين أو لم تستطع إخضاعها للحكم الإسلامي. فانتشر بهم الإسلام في إفريقيا السوداء واندونيسيا وجزر المحيط الهندي والصين والهند وسيبريا وشواطئ البحر المتجمد الشمالي. [91]

أما الدكتور نوح علي سلمان – مفتي القوات المسلحة الأردنية فيذكر أن التصوف الحقيقي هو طرح الأخلاق الذميمة وغرس الأخلاق الفاضلة، وهو ما يسمى بالتخلية والتحلية، ومن ثم فمن زاد في الأخلاق فقد زاد في التصوف. إلا أن البعض انحرف في تصوفه فجعل فيه حلولاً واتحاداً وسقوطاً للتكاليف الشرعية. فهؤلاء ليسوا مسلمين أصلا، والدفاع عنهم دفاع باطل وتأويل كلامهم إقرار خفي بما يقولون. وهؤلاء هم الذين ساهموا في تشويه التصوف.

ولا يفوت الدكتور نوح القول بأن تكفير الصوفية ونسبتهم إلى الشرك إنما هو تعجل في إصدار الأحكام، إذ من الإجحاف المدح أو الذم جملة. ولذلك يجب التفريق بين الصالح والطالح من الصوفية. فقد ظلم التصوف من طائفتين: طائفة الذين شوهوا التصوف بأفعالهم وشطحاتهم ودعاويهم. وطائفة الذين فهموه على أنه مجرد أفعال وعقائد وشطحات أولئك المشوهين فذموا كل أهل التصوف، صالحهم وطالحهم. (92)

وإذن فمعيار الحكم على التصوف والصوفية يجب أن يكون مستنداً إلى الكتاب والسنة بعيداً عن التطرف والغلو والمؤثرات أو الموروثات اليونانية والفارسية والهندية. فمزاعم الحلول والإتحاد والغناء والشطحات وقهر البدن وهجر الدنيا كلية... أفكار وأساليب وسلوكيات تتعارض مع الإسلام عقيدة وشريعة.

يؤكد المؤرخ الجزائري محمد علي دبور على أن الاستعمار قد نجح في استغلال أولئك المتطرفين وأصحاب البدع، فوجد في الطرقيين المنحرفين مطية «يركبها لتحقيق أغراضه. إنه يريد أن يفسد الأخلاق ويهدم الدين في النفوس، فوجد هؤلاء المشايخ أحسن ركوبه، وأطوع وسيلة، وأخلص خادم.. كان هؤلاء المشايخ جاهلين فاسدين لا تهمهم إلا شهواتهم، فحرصوا على بقاء الجهل الذي يقيد العامة لهم

ليستغلوها كما يريدون، ويبتزوا أموالها... وكانت هذه العامة إذا زارت المشايخ الأحياء تزحف على وجوهها من مسافة بعيدة قبل وصول مجلسه... أما قبور المشايخ فهي أماكن الرحمة والبركات. ترى العامة الجاهلة قبل أن تصل قبر الشيخ تتمسح بجدار مقبرته، وتخشع وتنادي باكية، يا سيدي فلان جئتك مستجيراً فاغفر لي ذنبي، واقضِ حوائجي، ودمّر أعدائي». [93]

الهوامش:

1. أحمد بن أحمد البرنسي المغربي المشهور بـ زرّوق: قواعد التصوف، ضبطه وعلق عليه محمد بيروتي، دار البيروتي، سوريا، دمشق، **1424**هـ / **2004** م ، ص **19**-**20**.
2. سورة الكهف، الآية (**28**).
3. يوسف السيد هاشم الرفاعي، الصوفية والتصوف، دار اقرأ للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، **2001** م – **1422** هـ، ص **109**.
4. د. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، ج **4**، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت، **2001**، ص **438**.
5. د. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، ج **4**، مرجع سابق، ص **441**.
6. د. محمد علي أبو ريان، الحركة الصوفية في الإسلام ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، **1994**، ص **15**-**16**.
7. د. محمد عباد الجابري، وجهة نظر حول إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، ط**2**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، **1994**، ص **24**.
8. د. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، ج **4**، مرجع سابق، ص **22**-**23**.
9. حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، ط **4** ، المطبعة الوطنية، عمان – الأردن، **1401**هـ - **1981**م ، ص **35**.
10. د. محمد علي ابو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ج **1** ـ دار النهضة العربية – بيروت ، **1970** ، ص **227**.
11. د. أبو العلا عفيفي، التصوف، الثورة الروحية في الإسلام، دار الشعب، بيروت، د.ت، ص **40**.
12. د. محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ج **1**، مرجع سابق، ص **239**
13. نفس المرجع، ص **240**-**241**.
14. المرجع نفسه، ص **242**.
15. نفس المرجع، ص **244**.
16. أبو العلا عفيفي، التصوف، مرجع سابق، ص **48**-**49**.

17. نفس المرجع، ص 48.
18. المرجع نفسه، ص 50-51.
19. نفس المرجع، ص 37.
20. د. محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1، مرجع سابق، ص 273.
21. أبو العلا عفيفي، التصوف، مرجع سابق، ص 63.
22. سورة المزمل، الآية 8.
23. سورة المزمل، الآية 6.
24. سورة المزمل، الآيات 1-4.
25. سورة الأحزاب، الآية 35.
26. سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد السادس، الطبعة السادسة، ج 22، د.ت.ص 587-588.
27. سورة النبأ، الآيات 21-26.
28. سورة الكهف، الآية 29.
29. سورة الحاقة، الآية 30-34.
30. سورة آل عمران، الآية 14.
31. سورة الحديد، الآية 20.
32. سورة النازعات، الآيات 37-41.
33. سورة القيامة، الآيات 22-23.
34. سورة الفرقان، الآيات 63-64.
35. د. أبو العلا عفيفي، التصوف، مرجع سابق، ص 52-53.
36. سورة التوبة، الآية 105.
37. الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، حققه وخرج أحاديثه عبد العزيزرباح وأحمد يوسف الدقاق وراجعه الشيخ شعيب الأرنؤوط، ط 3، دار المأمون للتراث، دمشق، 1400 هـ - 1980م ، ص 52.
38. المرجع السابق ، ص 547.
39. نفس المرجع ، ص 718.

40. المرجع نفسه ، ص **714**.

41. د. محمد علي أبو ريان، الحركة الصوفية في الإسلام، مرجع سابق، ص **49**.

42. نفس المرجع ونفس الصفحة.

43. سورة الأعراف، الآية **32**.

44. الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بـ ابن قيم الجوزية،

المكتبة السلفية، المدينة المنورة، د.ت. ص **95**.

45. د. أبو العلا عفيفي، التصوف، مرجع سابق، ص **68**.

46. سورة القيامة، الآية **2**.

47. د. أبو العلا عفيفي، التصوف، مرجع سابق، ص **69**.

48. نفس المرجع ونفس الصفحة.

49. د. محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ج **1**، مرجع سابق، ص **271**.

50. أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج **3**، ط **7** مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، **1936**، ص **18**.

51. د. محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ج **1**، مرجع سابق، ص **264**.

52. د. أبو العلا عفيفي، التصوف، مرجع سابق، ص **54**.

53. د. محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط **2**، **1968**، ص **28-29**.

54. د. علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج **1**، دار المعرفة الجامعية، ص **53**.

55. نفس المرجع ونفس الصفحة.

56. د. محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مرجع سابق، ص **150**.

57. د. محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، **1991** ص **151-157**.

58. العلامة عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، ط 5، دار الرائد العربي – بيروت ، 1402هـ - 1982م ، ص 467.

59. نفس المصدر ،ص 467-468.

60. عبد القادر عيسى ، حقائق عن التصوف، ط 4، المطبعة الوطنية، عمان – الأردن 1401هـ - 1981م ، ص 24-25، نقلاً عن كشف الظنون لحاجي خليفة ، ج 1، ص 414.

61. نفس المرجع، ص 24.

62. نفس المرجع، ص 25.

63. يوسف السيد هاشم الرفاعي، الصوفية والتصوف في ضوء الكتاب والسنة، مرجع سابق، ص 22.

64. عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي، القاهرة 1999، ص 21.

65. أبو الأعلى المودودي، مبادئ الإسلام ، دار الفكر الإسلامي، سوريا – حلب، د.ت ، ص 168.

66. د. علي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، مرجع سابق، ص 212.

67. نفس المرجع ونفس الصفحة.

68. المرجع نفسه، ص 213.

69. د. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، ج 4، مرجع سابق، ص 428-429.

70. راشد شهوان، نماذج من جهود ابن تيمية في التصحيح، بحث ألقي في الندوة العلمية المنعقدة في رحاب جامعة مؤتة – الكرك- الأردن، بتاريخ 28-29 آذار، 2001، ونشرت أبحاث الندوة في كتاب تحت عنوان: ابن تيمية، عطاؤه العلمي ومنهجه الإصلاحي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع – عمان ، 2008، ص 138-139.

71. يوسف السيد هاشم الرفاعي، الصوفية والتصوف في ضوء الكتاب والسنة، مرجع سابق، ص 179.

72. د. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، ج 4، مرجع سابق، ص 545.

73. نفس المرجع ونفس الصفحة.

74. المرجع نفسه، ص **584**.

75. الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، المكتبة العصرية – بيروت، **1431**هـ - **2010**م ، ص **27**.

76. نفس المصدر ، ص **19**.

77. المصدر نفسه ، ص **20**.

78. عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، مرجع سابق، ص **28**، نقلاً عن الأشباه والنظائر للسيوطي، ص **504**.

79. عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، مرجع سابق، ص **33**، نقلاً عن النصرة النبوية للشيخ مصطفى إسماعيل المدني على هامش شرح الرائية للفارسي ص **26**.

80. نفس المرجع، ص **34**.

81. فرح يوسف أحمد، التصوف الإسلامي، دارس أسامة للنشر والتوزيع، الأردن – عمان، **1998**، ص **9**. نقلاً عن كتاب الحياة الربانية والعلم، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، ص **16**، **17**.

82. فرح يوسف أحمد، التصوف الإسلامي، دارس أسامة للنشر والتوزيع، الأردن –عمان، **1998**، ص **9**. نقلاً عن كتاب الحياة الربانية والعلم، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، ص **16**، **17**.

83. يوسف السيد هاشم الرفاعي، الصوفية والتصوف ، مرجع سابق، ص **180**، نقلاً عن كتاب حاضر العالم الإسلامي للأمير شكيب أرسلان، ج **2**، ص **393**.

84. نفس المرجع ونفس الصفحة.

85. عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، مرجع سابق، ص **35**.

86. د. أسعد السحمراني، التصوف منشؤه ومصطلحاته، ط **2**، دار النفائس، بيروت، **1421**هـ - **2000**م ، ص **161**.

87. نفس المرجع ، ص **162-163**، نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوي في كتابه تاريخ التصوف الإسلامي، الكويت، **1975**، ص **25**.

88. نفس المرجع،ص **164-165**، نقلاً عن د. تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط **3**، **1981**، ص **101**.

89. عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، ط **2**، مكتبة مدبولي، القاهرة، **1999**، ص **177**.

90. يوسف السيد هاشم الرفاعي، الصوفية والتصوف في ضوء الكتاب والسنة، مرجع سابق، ص **77**.

91. نفس المرجع، ص **78-81**.

92. المرجع نفسه، ص **94-97**.

93. الدكتور أسعد السحمراني، التصوف منشؤه ومصطلحاته، مرجع سابق، ص **166-167**.